دور التربية الاجتماعية في الإسلام

ليست التربية الاجتماعية في الإسلام شيئاً مختلفاً عن التربية الفردية فيه. غير أن هذه الثانية يراد منها انسجام الفرد مع واقعه وفطرته الخاصة، على حين يراد من تلك انسجام الفرد مع إخوانه وبني جنسه في الحقوق والواجبات.

ولذا فإن الأسس التربوية لكل منهما واحدة لا تتغير، ذلك أن الأخلاق والصفات التي جاء بها الإسلام للفرد ليتحلى بها في نفسه، هي ذاتها الأخلاق والصفات التي اختارها للمجتمع ليصطبغ بها في مجموعه.

وإذا كان ثمة فرق بينهما، فهو أن التربية الفردية تعتبر بالنسبة إلى التربية الاجتماعية بمنزلة الأرضية من الشكل، فلكي تنشأ في المجتمع تربية صالحة قويمة ينبغي أن يتأسس ذلك على مجموعة من الأفراد الصالحين في أخلاقهم الشخصية الخاصة.

ومن هنا يبدو لغو الفكرة التي يتبناها بعضهم اليوم، وهو اعتبار الأخلاق الشخصية غير ذات موضوع أو أهمية بالنسبة إلى الإصلاح الاجتماعي ومقوماته الأخلاقية العامة. إن هذا أشبه ما يكون بالفكرة التي تدّعي إمكان إنبات حقل من الثمار والزروع اليانعة فوق طبقة من الهواء!..

إن التربية الإسلامية سواء في عملها الفردي أو الاجتماعي،

obeikandl.com

إنما تهدف إلى غاية كلية واحدة، هي: القضاء على الثنائية أو الازدواج الشخصي لدى كل من الفرد والمجتمع. أي تهدف إلى العمل على إيجاد توازن وانسجام تام بين كل من القوى العقلية والقوى الشهوانية لدى الإنسان، بحيث تتكون من توازن وانسجام ما بينهما حقيقة شخصية واحدة مؤلفة - في تعادل تام - من كلا العنصرين.

وكما أن الفرد ينطوي على كلا هذين العنصرين اللذين يبدوان متصارعين قبل أن تَصقُله عوامل التربية، فإن المجتمع ينطوي على هذين العنصرين ذاتهما أيضاً. ذلك أن المجتمع ليس إلا عبارة عن شخص معنوي تتمثل فيه جميع خصائص الفرد الواحد وصفاته.

وإذا لاحظنا مجموع النتائج التي تنبثق من القضاء على الثنائية أو الازدواج النفسي لدى كل من الفرد والمجتمع، فسنجد أن هذه النتائج لا تتعدى هذين الأمرين:

١- يقظة الكرامة الإنسانية في نفس الإنسان.

٢- ضمان العيش السعيد له.

ولقد صرح القرآن الكريم بهذين الأمرين، كغاية مضمونة عقب تطبيق التعاليم الإسلامية، فهو يقول إشارة إلى المبدأ الأول: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٠].

ويشير إلى ضمان المبدأ الثاني قائلاً: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٩٧].

ولا ريب أن هذين المبدأين هما غاية كل مجتمع إنساني في هذه الحياة، منذ فجر وجوده إلى نهاية قصته على هذه الأرض. غير أن سعي الناس إلى ذلك اتخذ طرائق شتى، وضلوا السبيل إليه - عندما حاولوا تخطيط الطريق من لدن أنفسهم - فضاقت عنهم ينابيع العيش مع أنها ثرة وكثيرة، وتمزق فيما بينهم رداء العزة والكرامة مع أنه يتسع لأشتاتهم كلها!..

ولقد دلَّ كل من التاريخ والتجربة والبحث العلمي المنصف أن المجتمع الإنساني لن يحظى بغاياته المنشودة المتمثلة في كل من المبدأين المذكورين إلا إذا سلك إلى ذلك طريق الإسلام، ذلك الطريق الذي خطه الله للإنسان إلى جانب الأرض التي أرساها من تحته، ووسائل العيش التي بثها من حوله. ولقد كان أمراً طبيعياً ألَّا يترك الله الإنسان لمظاهر الكون التي من حوله دون أن يضع بين يديه الدستور الذي يمكنه من استعمال فوائد هذا الكون على الشكل السوي المفيد. إن الذي يؤمن بالله وملكوته ثم لا يريد أن يؤمن بدستوره الموضوع إلى جانب هذا الملكوت، جدير به أن يكون كمن يتصور أن عالماً من الناس اخترع جهازاً عظيماً ثم قذف به إلى المجتمع دون أن يقرن به الدستور المتضمن لطريقة تشغيله على الوجه الصحيح!...

ولعمري ما أكثر ما لقِيتْ هذه الأرض من أوجه التعاسة

والشقاء بمن على ظهرها من بني الإنسان، إذ لم يُخضِعوا مجتمعهم لهدي الإسلام، ونظامه، وما أكثر ما يتهددهم اليوم أيضاً بذلك إعراضهم عن هذا الهدي الإلهي العظيم.

إن من المستحيل بالبداهة لكل ذي عقل أن يلطُفَ الله بعباده فيحشر على الأرض من حولهم كل أسباب العيش والنعيم، على حينِ يغضَبُ عليهم فيتركُهم لقانون نزواتهم العاتية التي تحيل أسباب هذا النعيم من حولهم إلى نيران تتضرم من حولهم.

ولا ريب أن من العسير - ونحن نخط هذه العجالة - استعراض المنهج الإلهي الذي يتضمن التربية الاجتماعية للإنسان على وجه تتحقق به رغائبه من حيث الفرد والمجموع، ولكنا سنتحدث عن أهم الأسس التربوية التي تتكفل له بتحقيق هذه الرغائب.

وقد قلنا آنفاً، إن هذه الرغائب تتلخص في مبدأين اثنين: إيقاظ الكرامة الإنسانية، وضمان العيش السعيد في الحياة.

فأما حصول الإنسان على كرامته وعزته وحريته، فقد خط له الإسلام إلى ذلك سبيل العقيدة، أي الإيمان بألوهية الله وحده ومن ثم الإيمان بالعبودية له وحده، وما يتبع ذلك من الإيمان بالرسل واليوم الآخر.

فهذا السبيل هو الطريق الوحيد الذي يصل الإنسان منه إلى أرفع ذروة من ذرا العزة والكرامة والحرية. تأمل في قول سحرة فرعون قبل أن تدخل هذه العقيدة في نفوسهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا

لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٤٤]، أين هي عزة الإنسان في أقل مقاديرها لدى هؤلاء الذين جردوا أنفسهم من كل كرامة إلّا كرامة فرعون الذي هو فرد مثلهم؟ ثم تأمل الذروة التي قفزوا إليها فجأة بعد أن دخل الإيمان قلوبهم، في قولهم بعد ذلك لفرعون نفسه: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٧٢-٧٣]..

وتأمل حالة ربعي بن عامر، الجندي المسلم، في جيش سعد بن أبي وقاص، حينما بعثه قائده لمقابلة قائد الفرس رستم، وتصور مَقْدمه إليه وهو يلبس خرقة لا تكاد تسمى ثوباً، على حين جلس القائد الفارسي على عرش ألوهيّته ومن حوله العبيد واجفين راكعين!... فلقد تقابل كل من عزة ذلك القائد الفارسي المتأله وعزة ذلك الجندي المسلم، فتغلبت الثانية على الأولى، وعاد رستم أمام الجندي المسلم ذليلاً لا يتحرك: دخل ربعي بن عامر مرفوع الرأس، وراح يتوكأ - وهو يخطو إلى صدر سرادق رستم - على رمحه وقد جعل زجه إلى الأرض، حتى أفسد جميع ما مر عليه من النمارق، ثم أبى أن يجلس إلا إلى جانب القائد المتأله، وراح ينظر بعين ساخرة إلى الصفوف الراكعة عن يمينه وشماله قائلاً: (لقد حسبت أنكم تتساوون كما نتساوى، ولم أعلم أن فيكم آلهة يُعْبَدون وعبيداً يركعون، الآن علمت أنكم مغلوبون..).

إن مثل هذا التحرر والاعتزاز لا يحظى به الإنسان إلا في ظل الإيمان بألوهية الله وحده من دون سائر المخلوقين، ومن ثم فلا يحظى بمثل هذه العزة والكرامة إلا مجتمع كان مَحلُّ هذه العقيدة فيه من الصدارة في القلب.

غير أن هذه العقيدة يدركها ما يدرك الشجرة من الذبول ثم اليبوسة إن لم يتعهدها صاحبها بالسقيا بين كل حين وآخر، ولقد جعل الله سقيا العقيدة في تعهد العبادات، فما شرعت الصلاة وغيرها من العبادات إلا تغذية لنبت العقيدة في النفس كي لا تضعف فتتوانى عن أداء عملها في نفس صاحبها وفي المجتمع.

أما المبدأ الثاني، وهو ضمان العيش السعيد، فقد شرع الإسلام إلى ذلك سبيل التشريع والأخلاق.. ولما كان العيش الهانئ للمجتمع لا يتوافر إلا عن طريق التفاعل العادل بين مبدأي الحقوق والواجبات فقد كان كل من التشريع الإسلامي والأخلاق الإسلامية تطبيقاً لهذا التفاعل. وهو ما يعبر عنه جل جلاله بـ(التعاون) وقد أمر به قائلاً: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٥/ ٢].

غير أن أشد ما يحول دون تنفيذ هذا التعاون - أي تنفيذ التفاعل العادل بين الحقوق والواجبات - دواعي النفس والهوى لدى الإنسان.

فما من ريب أن نفس الإنسان - حينما تكون بمعزل عن عقله المنصف - لا ترضى له أن يركن إلى أي واجب أو أن يضع ذاته

تحت أي مسؤولية. وهنا لا تجد أي قانون أو تشريع وضعي يستطيع أن يجتث داء هذا الجموح بأي شكل من الأشكال، اللهم إلا الإسلام، والسبب أن تشريع الإسلام يرتكز على أساس من العقيدة والإيمان بالله عز وجل، ومن ثم فلا يجد المسلم مناصاً من الارتباط بالمسؤولية التي أذعن لها، عندما هيمنت حقائق الإسلام على عقله.

إن ضمان العيش السعيد يحتاج - مثلاً - إلى تنظيم المسؤولية في المجتمع، وهذا يتطلب تنظيماً للأسرة وأفرادها، وهذا التنظيم يحتاج إلى أن تكون صلة ما بين الرجل والمرأة مقيدة بشريعة لا تتجاوزها، ولكي يتم هذا التشريع المقيد لا بد أن تظل المرأة في حياتها الجنسية مطلوبة غير طالبة، ولكي تكون كذلك لا بد من تنظيم لحياتها واحتشام في لباسها، وإنما تنهض بذلك التربية الدينية، وهذا تأكيد لحقيقة سبق بيانها.

وحسبي أن أذكرك بالمثال الذي سبق بيانه، كي تدرك أثر التربية الإسلامية في خلق المجتمع السعيد وتذليل العقبات أمام مقومات هذا المجتمع.

حينما فوجئ المسلمون بالآية التي قررت تحريم الخمر تحريماً حاسماً، كانوا متعلقين بها تعلقهم بالضروري من الطعام والشراب، وكانت نواديهم ومجالسهم لا تكاد تخلو من خمرةٍ تُدار ورؤوس سكرى.. ومع ذلك فما إن سمعوا حكم الله الحاسم في الخمر حتى ألقيت الكؤوس من الأيدي، وأهريقت الدنان في الطرقات، وصاحوا لبيك اللهم لبيك فقد انتهينا.

على حين أن أمريكا - وهي رسولة المدنية والحضارة الحديثة

إلى القرن العشرين - أقدمت على التجربة ذاتها في عام ١٩٣٣ فأعلنت تحريمها الخمر، ولكنها ما لبثت أن نكصت على أعقابها وارتدت مترنحة من ألم الحرمان تعبّ أقداحها من جديد، ولا ريب أنه كان في مقدمة الرؤوس المترنحة رؤوس أولئك المفكرين والمقننين!...

إن الإسلام يسعى في تربيته الفردية والاجتماعية إلى إصلاح الباطن أولاً وذلك بإنبات غرس العقيدة فيه، ولذا فإنه يحمل معه ضمانات تطبيقه وتنفيذه، بعد أن تتوافر العقيدة الكاملة في النفس، ثم إنه يسعى إلى إصلاح العلاقات الاجتماعية ثانياً.

أما السبل التربوية الأخرى فلا سلطان لها في قليل ولا كثير على القلب، ومن ثم فلا سلطان لها على المجتمع في شيء، وحينما تحاول هذه السبل أن تفعل شيئاً، فإن الطريق يخلو أمام سيد آخر... هو الشهوة العارمة والأنانية الطاغية!.. كما هو الحال اليوم في أكثر مجتمعات عالمنا الحديث.

ولكن أليس عجيباً أن تجد من ينعت الناس الذين عرفوا الله فآمنوا به فاتبعوا منهجه الذي رسمه لتحقيق التربية الاجتماعية، بالظلاميين، وينعت الناس الذين آثروا اتباع رعوناتهم وشهواتهم العارمة لنسف هذه التربية بالمتنورين؟!..

ونسأل عن الميزان المتبع للحكم بهذا القرار وذاك، ويأتي الجواب الصامت الذي تترجمه السلوكات والنتائج قائلاً: إنه المزاج ولا شيء غير المزاج.